

الوصف عند البابلين- دراسة اءبية

ء. سالم ءحىء البورى

قسف الففوش واللغات العراقفة الفءفمة كلية الأثار-جامعة الموصل

مقدمة

ءعرف الففوفون الوصف بأنه : وصفك الشفء بءلففه وئعفه⁽¹⁾ وكذلك من قال هو جزء من منطق الانسان ، لأن النفس محتاجة الى ما فكشف لها من الموءوءاء وفكشف للموءوءاء منها، ولا فكون ذلك الا بئمئفل الفففة و ئاءفها الى الففصور سمعاً و بصرأ و فؤاءاً⁽²⁾. فف ففن فءءء آفرون عن الوصف فقوالوا أن أصل الوصف الكشف والإظهار، إذ فقال وصف فوب البفس إذ نم عفله، ولم فستره.⁽³⁾

قء فظن القارئ أن الوصف هو عفة الففء أو الففبفه، لذا قام بعض الففءاء بالففمفز بفن هذ المصطلفاء إذ فرق بعضهم بفن الوصف والففبفه، إذ قالوا فف فعرففهم للوصف هو مناسب للففبفه مشئمل عفله، ولفس به ، لأنه كئفر ما فآف فف اضعافه والفرق بفن الوصف والففبفه أن هذ إءبار عن فففة الشفء، وأن ذلك مجاز وئمئفل ، إذ فذكر الففل بن اءمء الفراهفءف أن الففء لا فكون إلا فف مءموء والوصف قء فكون ففه وفف ففره، أما ابن فارس فلم ففرق بفن الففء والوصف ، إذ قال "ان الففء هو الوصف" ، ولم فقفصر الففءاء ففوءهم على الففرق بفن الففبفه أو الففء والوصف بل كان هناك مقفاس لوءوء الوصف ، ففذكر ابو هلال العسكرف قائلاً: الوصف هو: "ما فسئوعب اكئر معانف الموصوف ، فئف كأنهصور الموصوف لك ففراه نصب عففك" ، أما آفسن الوصف ففقول ابن رشفق: ما ففء به الشفء فئف بئمئفله بصرأ ، عفانأ للسامع، وقء ففئلف الشعراء فف مقءار براعئهم الففرففة، فبعض الشعراء فففء الوصف فف فرفض شعرف معفن، ولا فففء الوصف فف فرفض آفر.

فف ففنفرفى بعض الففءاء والاءباء أن الوصف فف كل شفء نوعان: الأول: ففالفف والفئانف: ففسف⁽⁴⁾ ، فالوصف الففالفف فعئفم الففبفه والاسئعارة وففءول أن فسئفضر الموصوف فف الفءكرة، أما



الموصوف الحسفة فهو تصوف للموصوف ولاربف أن الوصف أبلغ وأجود وأندر وأكثر صعوبة من الوصفالنقلف والمادف على حد سواء،⁽⁵⁾ ولأن ما جاءنا من موروث أطفغزفرملئ بالوصف الخفالف والحسفة والمطابق للآءب العربف ارأفنا بفان أهففة هءا الفن معلقفن على الاسلوب البلاغف وما فءضمفه من عبارات تشبفه واستعارة عكست امكانفان الشاعر و الأءفب العراقف القءفم فف نقل الصور الجمفلة تارة والحزفنة الباكفة تارة أخرى من خلال تصنف الوصف الوارف فف تلك النصوص حسب الآف:

- وصف الحب والجمال

ابءع الفنار والاءفب العراقف القءفم فف وصف الحب ومواقف الجمال لءى الأنسان ، رجلاً كان أم امرأة على حد سواء ، وأظهر ما فبول فف صءره من مشاعر ملءهبة كان قد عانى منها سواء فجاه حببفة فارقها أو وطن هجره و حن فله لءا وحب علفنا أن نحدد ذلك الحب والمواقف الجمفلة على النحو الآف

1 - حب الإنسان

عُرف ان الحب فولد الشكوى والحنفن والآففن والانتظار ورفرها من المواقف والمشاعر الفف فءعله ففصل الى مراحل فءطى حدود الاحساس والضمفر ففصل الى مراحل عالفة من المشاعر الوءءائفة الحسفة الخفالفة فمن بفن النصوص الكفرفة الفف فوصف لنا مثل هءه المشاعر نذكر الآف:

"ءموزف كان ففئظرها بفارغ الصفر...."⁽⁶⁾

فشفر الكاءب الى أن الالهءموزف كان فف موعء غرامف مع الآلهة عشءار مءولاً أن بفبفن لنا لوعاء الانتظار وما فعانفه العشاق من لءظات قلق وءوف وءءفءاً عنءما فكون العاشق على موعء غرامف مع الحببفة وءصوصاً اء كان ذلك الموعء قرب ءارها وما قد فءعرضائله عنء رؤفة أء ما لءلك الموقف مع الفارق فف الءفء عن الآلهة والبشر وكففة اعءقاء العراقفن القءماء عن امءلاك الآلهة عشءار للمشاعر الانسانية وبهءا فان مثل تلك اللقاءات قد فءسامر الأحبة ففما بفنهم



وهمسكوا بأفأفهم لفخففوا من شفة الشوق واللواعج التي حصلت قبل اللقاء وهذا ما نقرأ أوهمف
النص الآف:

" سوف فضع فده فف فف، ففضم قلبه الف قلبف... " (7)

فوضف الكافب أن من بفب أهم المواقف الفسفة التي قد فعبف عن ذلك الشوق هم مسك فف الفببفة
وضمها لففسنئ لها عن قرب الفماس مء صءق المءبة التي فكنها ذلك الفببف لها وصدق
المشاعر والافلاص عبف فك الصورة الفالة على الفقارب العاطفف بفب الفرففب فف ففوك ذلك اء
النصوص الآففة:

"سوف ابقى مخلصفة لك، لعل عشفار الملكة فكف شافءف، فبف سوف فففسر... " (8)

فشفر اءف الفببفب فف مءف فبها لمءبببها وفوك له أن مءار فبها له لا فعرفه سوى سفة
الف و الهف عشفار التي عرفف بفذه المفة وبهذا فقد اشهدف الآلهة عشفار على صءق فبها
واففساره رغم كل ما فقال اءفاناً من بعض العواذل والشاة الففب من شأنهم ان فءاولوا فق
وصل الموءة بفب الافبة والافلاء وفرففهم بأف وسفلة وكما مببب فف النص الآف:

"لا فقولف لف أف شفاء لا ففكلمف كئفراً،... لا ففقف بما ففوله لك الناس، انك لا فزالفب الفففة
التي ارأها.. " (9)

أكد الفببب مءف فب لففببفه فضلاً عن فقءم الفص لفا بعءم الافعاء لكل ما فقال عن فبها له
مما جعله فخرج عن طور المألوف اءفاناً لفوك بقاءه بوجه كل من فءاول انهاء ذلك الفب سواء
من الاهل فارة والمجمف فارة أفرى فف قد اسفءوذف على رؤففه فما عاء فرفى سواها من شفة
فبها، وفشفر نص أفر الف طفبعة هذه العلاقة الوطفة بفب الفرففب:

"عءما سفءفل القمر بفبنا، سوف أطفئ النجوم على مساراتها... " (10)

وهنا فجب ان نقف أمام هذا الوصف الرائع الفف بفم عن ففال كافب عانى وءون ما كان فشعر به
شخصياً او ما الفمسه من الفصص الواقفة التي ففكف عن فب ففاة وشاب مع الأفء بالفسبان



انه استعان بالقمر الذي طالما قرأنا في كتب الأشعار عن تغني الشعراء والادباء به لما له من أهمية تعكس مناجاته اثناء سكون المجتمع ليلاً وبقاء العشاق والاحبة ليتأملوه فيكون الحاضر الوحيد في تلك اللقاءات والشاهد على كل المواقف الجميلة التي قد تحصل والاحاديث الطريفة التي تدور اثناء ذلك اللقاء فضلاً عن بريقه الذي اشغل أولئك الاحبة والشعراء مما نجده حاضراً في وصف اي حبيبة وكما في النص الآتي:

"(انانا) فتحت الباب من داخل المنزل كانت تشع امامه مثل ضوء القمر جاءت تستقبله خارج الدار...."(11)

ولأننا في صدد وصف الحبيبة فنجد من جهة أولى أن الكاتب قد استعار ضياء القمر ليشبه به وجه الحبيبة وما يشع منه من جمال أسر فائن ومن جهة ثانية ينظر منها المحبون إلى حبيباتهم ويمكن ان نرى ايضاً وصفاً للمحبوب كما في وصف الملك سمسو-ايلونا وحبيبتة:

" الى سامسو-ايلونا انها بوجه باسق، ريعان الشباب، عيون مبتهجة، ذات سمة براققة، تنظر اليه طالما انه جميل، فانها تثير الرغبات العاطفية....سامسو-ايلونا حجر كريم لامع، شجرة نحبها..."(12)

تفنن الاديب البابلي في اعطاء صورة واضحة عن الشابة الجميلة التي احبت شاباً ترعرع في كنف اسرة ملكية حكمت البلاد لسنين طوال مما عكست لنا ريعان الشباب والبهجة والاطلالة و الاوصاف الجميلة فضلاً عن التشبيهات التي اراد الفنان اظهارها من جمال ونظارة قد تمتع بها ذلك الملك لذا فقد شبهه كحجر كريم براق لامع يسر الناظرين، ولو حاولنا ان نظهر ما كانت النساء عليه ايضاً فقد وصفت بأشكال من الاوصاف منها:

"(انانا)عشتار)المقدسة....كانت مثل ضوء النهار وهي تعتلي المنصة على دكة العرش العظيمة والملك كان الشمس وهو يأخذ مكانه الى جانبها"(13)

فضلاً عن الجمال الحقيقي فغالباً ما كانت المرأة الشابة تحاول ان تبقى متألفة امام الرجل بالتجمل الفتي وبوضع الزينة والحلي والاساور والعمطور والمبيضات والكريمات التي نجد قسماً منها في النص الآتي:

"عندما استحميت لأجل السيد، لأجل دموزي، غطيت وجهي بالبودرة، عندما جملت عيني بالكحل" (14)

وجاء في نص ثانٍ الشاعر حاول أن يبين العيون كمصدر من مصادر الجمال والجدب لدى الرجل اذ جاء في النصين الآتيين:

"عيناها تلمعان وتشرقان، من نظراتها تنشأ البهجة" (15) وكذلك: "نظرة عينيك تسحرني، تحرك مشاعري...." (16)

أختصر الكاتب مشيراً الى الجمال برمز العيون التي تمتلك القدرة على اجتذاب الآخر والتأثير فيه عاطفياً مما يعكس لنا ان الوجه الباسق والعيون كانا امراً مهماً لدى معظم الشباب الباحثين عن الارتباط واقامة علاقة عاطفية مع أية فتاة، ولابد ان نخرج الى الشفتين الجميلتين اللتين حظيتا باهتمام لدى النساء مما دعا الادباء ان يبينوا ذلك في وصفهم للنساء بصورة عامة والفتيات بصورة خاصة ليظهرن بمظهر لائق يكمل تمام الاناقة والاشراقة التي تحدثنا عنها في ذلك الوجه الذي عند رؤيته تتحرك مشاعر الشباب والعشاق وكما جاء في النص الآتي:

"بعد ان أدهن بالعنبر شفتي، واضع الكحل حول عيني" (17)

فثمة حس داخلي جمالي لدى المرأة يهتم بابرار بؤر الجمال الأنثوي أمام الرجل ، أما قوام الرجل والمرأة فكان عنصراً مهماً عند اختيار الشريك لكلا الجنسين في المجتمع وقد عكست لنا هذه الاهمية الكتابات الادبية وكما مبين في النص التالي:

آه ايها الوسيم ،عذب(انت)شجرة نحتت بصورة جيدة ،آه ايها الوسيم (انت) مثل شجرة النخيل" (18)

شبه الكاتب ذلك الشاب الوسيم بطوله الفارع كطول النخيل الباسق الذي عرف بجماله فضلاً عن سمة المبالغة في وصف الحبيب بالشجرة التي نحتت بيد نحات وحسب ظني ان هذه الاوصاف ظلت مستخدمة لحد الآن عند رؤية شخص ما جميل فيقوم الواصف بذكر التشبيهات العديدة ليوصل الصورة الشبيهة للموصوفالى المتلقي أو السائل فنجدها استعانة بعنصر من الطبيعة (الشجرة) لتشكيل صورة تشبيهية وصفية تساعد المتلقي على تخيل صورة الموصوف بشكل فني معبراً، اما الحلّي فشغلت عقول النساء اكثر من الرجال مع الاخذ بالحسبان ان الرجل والمرأة كانا يتزينان بتلك الحلّي اذ جاء ذلك في احد النصوص:

"خواتم من ذهب وصفت في يدي خرز صغير من الحجر، علفت حول عنقي، عدلت توازنهما على مؤخرة عنقي" (19)

اننا هنا امام توصيف لمكملات الجمال عبر الاستعانة بالحلي والزينة الملونة وربما ان هناك علاقات حب كانت تختتم بالزواج فلا بد من اقامة مراسيم الاحتفال مع حضور المغنين وحضور المدعوين اذ جاء في الآتي:

"أيها المغنون دعونا نغني أغنية تبتهج القلب، فكان القصر في عيد، الملك في سرور، وكان الناس يقضون النهار في نعيم" (20)

يصف النص بالصور السمعية كـ (الغناء) والحسية كـ (القصر في عيد) والنفسية كـ (الملك في سرور) و(الناس في نعيم) اما فيما يخص العرسان فكانا يجلسان الى جنب بعضهما البعض على منصة او مقاعد وهذا مما جاء في النص الآتي:

"انانا(عشتار)المقدسة.....كانت مثل ضوء النهار وهي تعلي المنصة على دكة العرش العظيمة والملك كان الشمس وهو يأخذ مكانه الى جانبها" (21)

اراد الكاتب أن يصف جمالية العريس بصورة تصف فضاء جلوسهما معاً وكأنهما لوحة من الجمال وخصوصاً بعد ان ختم حبهم بالزواج وقد جاءتنا الكثير من النصوص الادبية التي تحكي



عن حالة الحب بين الآلهة عشتار و دموزي اللذين ارتبطا بزواج سمي بالزواج المقدس والذي عد طقساً دينياً فيما بعد من قبل ملوك بلاد الرافدين.

2 - حب الوطن

تغنى الادباء بأوطانهم ووصفوها بأوصاف عديدة مفعمة بالإحساس الصادق الذي يخرج من الاعماق ، خصوصاً اذا فارق ذلك الانسان وطنه مرغماً او لأي سبب آخر ، وليس من الضرورة معرفة حب الوطن لدى الانسان من خلال اظهار جمال ربوعه أو التغني بأماكن صروحه فحسب، بل بالمشاهد التصويرية الخيالية التي شبه بها ما يحبه في موطنه سواء في وقت الرخاء أو عند تعرضها الى الظلم والقهر والذل فكل كلمة شادت بذكر في الاوقات العصبية يمكننا عدها أفضل صورة جميلة يحق لنا وللشاعر رسمها بحق لذلك الانسان ولتبقى اقوالاً ثابتة متأثرة لذا نقرأ ذلك في ما جاء به جلجامش قائلاً:

" بنى سور مدينة أوروك ، ذات الأسوار ، أي- أنا المقدس، المخزن الطاهر ، انظر سوره الذي هو كالخيط اللامع ، حدق في شرفاته التي لا يماثلها شيء ، امسك الاسكفة، إنها منذ القدم ، اقترب من معبد أي- أنا، مقام عشتار ، الذي لا يستطيع ملك آتٍ ان يأتي بمثله، ولا أي إنسان ، اعلُ فوق سور أوروك وتمشَ ذهاباً وإياباً ، افحص القاعدة، ولاحظ اللبن ، اليس لبنه أجراً؟ ألم يضع الحكماء السبعة أسسه؟ ميل مربع المدينة، ميل مربع البساتين ميل مربع ارض فضاء، نصف ميل مربع معبد عشتار، (المجموع) ثلاثة أميال مربعة ونصف مساحة أوروك" (22)

يخبرنا جلجامش عن مدى حبه لوطنه الذي تربي به وترعرع فضلاً عن القوة التي تمتعت بها مدينته اذ بدأ في مستهل حديثه وصفاً دقيقاً لذلك السور الجميل الذي حمى بلده مع ذكر للاماكن المهمة في المدينة كالمعابد ومن أهمها معبد الآلهة عشتار مشيراً بالوصف التفصيلي الى الجمال العماري الذي تميز به ذلك المعبد من شرفات واسكفات وغير ذلك ثم يعود معرجاً لذلك السور العظيم الطاهر واصفاً اياه بالخيط اللامع دلالة الى استقامته ومدى دقة بناءه مع الاخذ بالحسبان انه قد صنع من اللبن ثم حرق بالنار ليصبح أجراً وما للأجر من مكانه دينية بعد تطهيره بالنار و القوة التي اضيفت اليه من الناحية العملية ضد كل العوامل التي من شأنها ان تؤثر عليه ، ومن الجدير بالذكر ان تلك العظمة في مجال العمارة والهندسة كالبناء والتصاميم التي شملت خارطة

المدينة وبساتفنها ومعابدها ، كانت مخططة مسبقاً من حكفاء البلد و أهل اختصاص ، وكل الالباب أنفأ لا تدل إلا على مدى تعلق المتكلم بذلك الموطن الجمفل، في حين نقرأ في أماكن من قصائد أخرى تشبفه الالفب لتلك الشواخص والأماكن بمشاعر انسانية اقتصرت على الانسان وما قد تتعرض له عند الاهمال او عدم الاهتمام وتحددأ عندما تتعرض المدينة الى الغزو من بلاد اخرى:

"الوركاء خلعوا عففها ، اقتلعوا براعمها الشابة" (23)

قدم الشاعر وصفارائفظهر المدينة كفتاة جميلة في ريعان الشباب قام الاعداء بقلع عففها وكأنه فرفد من هذا التشبفه أن المدينة تعرضت الى ظلام بعد أن فقدت وسيلة الرؤفا من جراء ذلك الغزو مع الالف بالحسبان أن معظم مدن وسط وجنوب العراق قد عانت من غزوات متكررة من بلاد عفلام ومن تحالف معها في ذلك الوقت فالوصف هنا درامف مؤثر ومعبر في أن واحد عن عمق المأساة التي تعيشها المدينة.

ولم فكتف الالفب العراقي القديم بوصف المدينة بصورة مباشرة بل نجده فحافف الجدران وفسنتنطقها وفوحف لنا أن قد حاكافها من خلال مشاعرها التي باتت تتكلم وتحس ما عانت من وفلات وصدماات اذ فقول واصفاً تلك الجدران بالاتف:

"آجر البفب الصالح فبف كمخلوق آدمف" (24)

لا تختلف هذه العبارة الجمفلة عن ما نقرأ أفاناً للشعراء المحدثفن وهم فمثلون عبارات الحب وتعلقهم بأوطانهم من خلال وصف الاشفاء الجامدة كالجدران والحفطان والازقة وكأنها تتكلم وتتحدث وتشعر بما ففور في مشاعر الانسان وتحددأ عندما تتعرض الاوطان الى ظلم وقهر وما شابه ذلك فهو فضف على آجر البفب صفاء انسانية ، ولابد من الوقوف امام نقطة مهمة وهي تردد مصطلح الآجر الذي ورد في النصوص الواردة أنفأ والتالف اذ جاء:

"أور المشفدة بالآجر ، رثاؤك الفم" (25)



ربما يعود السبب لأمر عقائدي كون الأجر يطهر وتضفى عليه القدسة عندما يتعرض الى النار بعد أن كان لبناً ، أو لان اللين تطغى عليه الصفة الجمالية بعد أن يصبح أجراً لكن هذه الصفة تأتي بعد عناء وجهد وزمن طويل مما جعل الادباء يتغنون بجمال تلك المباني المصنوعة من هذه العناصر البنائية مع الأخذ بالحسبان اوجه الفرق مع مادة اللين اذ يعد الاول اكثر مقاومة لكل عوامل التعرية والتخريب وغير ذلك فضلاً عن الجهود التي يبذلها الاهالي والحكام في بناء اوطانهم ومؤسساته الحكومية والدينية وما تعكسه من علاقة وطيدة في نفسيته اذ نقرأ في الآتي:

"بنى لـ انا، معبد أكد كحجرة نبيلة لها ،... اسوار المدينة في(زمن نرام-سين) كانت كالجبل الذي تصل قمته الى السماء وابواب المدينة كانت مثل مصب نهر دجلة في البحر..."(26)

يعكس الشاعر تشبيهه لمعبد مدينة أكد بوصفه موطن الراحة لديه أو لأي أنسان اكدي في ذلك الوقت من خلال وصف ذلك المكان بالحجرة النبيلة التي هي ارقى مفردة ممكن ان يوصف بها مثل هكذا مكان المقدس اشارة منه الى الرفعة والسمو، فضلاً عن جعلها اسوار المدينة الشاهقة تحاكي السماء دلالة على سموها وارتفاعها وتفرداها مع وجود البوابات التي كانت تفعم بالحيوية لكثرة الوافدين والذاهبين منها واليها اذ قام بالاستعانة بجريان نهر دجلة و صبه في شط العرب ليشير الى استمراريته ووفرة تدفقه .

ولابد من الوقوف أمام مواقع تلك المدن والخيال الذي اراد الكاتب أن يوصله من خلال الصورة الجميلة التي تحاكي ذلك الواقع ، إذ نجد معظم تلك المدن تقع على ضفاف الانهر كنهر دجلة والفرات الذي طالما تغنى بهما جميع شعراء وادباء العصور القديمة والحديثة على حد سواء ، كونهما أحد سبل ووسائل الحضارة فضلاً عن المنظر الخلاب الذي تعكسه الأشجار التي تنمو على ضفاف الأنهار مع جريان الماء وما له من انعكاسات على نفسية الانسان اذ جاء في نص يعود الى مدينة نيبور واصفاً اياها بالآتي:

"شروباك ، المدينة التي تعرفها انت، الواقعة على ضفاف نهر الفرات، هذه المدينة قديمة والآلهة كانوا بداخلها..."(27)



يوحي النص من خلال الصورة الوصفية الواقعية لحال المدينة انها كانت مليئة بالحياة بدليل الاشارة الى قدمها فضلاً عن استقرار الالهة العظيمة فيها ،مما يجعلنا نعتقد مدى التقدم والازدهار الذي كانت تفعم به مثل هذه البلاد من خلال استقرارها قرب مصادر الحضارة،فضلاً عن كونها محور القوة المقدسة بوجود الآلهة فيها ونجد اشارات اخرى لمدن ذات مميزات يمكن عدها في مصاف الدول المتحضرة حالياً اذ نقرأ في الآتي:

"(في)نيبور، المدينة التي اعتاد شعب الرووس السود على تهدئة انفسهم في ظلها الوارف" (28)

لكن هذه المدن كانت ولا زالت تتعرض الى نكبات ولا يهنأ لها عيش لوجود مطامع من ممالك مجاورة أثرت بشكل مباشر على تقدم تلك الممالك والسلالات الحاكمة لها لذا كان صعباً ذلك الظل الوارف أن يستمر، اذ جاء في نص يصف حال مدينة اور بالآتي:

"مدينة اور كغزال كبير قد اصطيد ، حنت رأسها على الارض" (29)

ان الجمال الذي ارتقت اليه مدينة اور وعاصمة السومريين دفع الاديب الى أن يشبها بغزال جميل رشيفكان مصيره أن يصطاد بيد صياد عرضه الى الذل والهوان وفقدان الحرية وهذا ما ذكره لنا الاديب عند الإشارة الى انحناء رأس الغزال والمراد منه مدينة اور المقدسة فالحاسة الجمالية عند الواصف، جعلته يستعين بعنصر من الطبيعة الحية (الغزال) ليصف به مدينته، برابط الجمال بين الاثنين (المشبه\المدينة) و(المشبه به\الغزال) ، فضلاً عن تشبيه المسؤول عن تشويه هذا الجمال ب(الصياد) ، لذا يشير الكاتب في نص آخر شيء يشابه نفس الحال أو مكماً لما سبق من النصوص فنقرأ:

"العيش في مدينة غريبة أمر تعيس ، الى مدينتك أعد اهتمامك، العيش في معبد غريب، أمر تعيس الى معبدك أعد اهتمامك" (30)

يريد الكاتب أن يوصل أن مشهد الراحة والازدهار والتقدم لا يمكن أن يبقى مستمراً بوجود قوى مجاورة طامعة مما جعلهيين أن الحياة خارج الأوطان قد تعرض الانسان الى الحزن والتعاسة لذا

قام بتقديم نصيحة لمن اراد أن يتفكر بأن يعيد النظر في اهتماماته اتجاه وطنه ومعبدته وكل شيء يحسه كي يبرهن على حبه له وأنهجزء مهم من حياته وسنقوم بذكر رثاء الإنسان لوطنه لاحقاً.

- وصف الخمر والطبيعة

اشتهر الأدب العراقي القديم بذكره للخمر كونه الأنيس الذي كان يعكس لنا حياة الترف و الأونس والراحة وتحديداً عندما يجتمع الأصدقاء والاحبة فضلاً عن كونه يعطي الانتعاش وينسي الانسان همومه ومعاناته اليومية وهذا ما اشارت اليه النصوص الادبية اذ جاء في اسطورة حينما في العلى ذكر لتلك الاجتماعات فكانت الآلهة تجلس على طاولة النقاش ثم تنتهي بوليمة كان الخمر من بين المشروبات التي شربت كدليل على النتائج المفرحة كما مبيني النص الآتي:

"ليحضر الآلهة جميعهم وليجروا مناقشة،ليجلسوا في وليمة ليأكلوا جمأً،ليصبوا خمرأً"⁽³¹⁾

إن الاعتقاد السائد ان الآلهة كانت تأكل وتشرب كالبشر منه امراً آخر هو أن الولايم آنذاك كانت ترافقها المشروبات كالخمر مثلاً في الولايم التي يقيمها المجتمع، فهو طقس احتفالي بهيج يعيشه المجتمعون.

ويبدو ان شرب الخمر والجعة كان نوعاً من انواع الرجولة والبطولة اذ جاء في نص ملحمة جلجامش ذلك نحو:

"ووضعوا الجعة أمامه ، شرب، وأخذ ينظر ، ويحدق متوجساً ، فأنكيدو لا يعرف ، ان الطعام للأكل، وعلى شرب الجعة ، ما كان متعلماً ، فتحت الغاوية فاها ، لتذكر لأنكيدو ، كُْل الأكل يا أنكيدو، فهو سمة الحياة، واشرب الجعة فهي شيمة البلدان، أكل أنكيدو الأكل، حتى الشبع،شرب (من) الجعة، سبعة أقداح، انشرح الصدر، فأخذ يغني، ابتهج قلبه"⁽³²⁾



يشير النصن وصف تفصيلي لمجلس الشراب الذي يصل فيه أنكيو الى حال النشوة والبهجة بعد تدرجه في الاكل والشرب، تحت مغريات على لسان الغاوية(الغانية) التي تصف له الابعاد اروحية لمردود الشراب على نفسه بما تثيره من بهجة وسعادة فهو (سمة الحياة)

والى جانب الخمر وشربها فقد كانت الطبيعة مرافقة لأدب العراقيين القدماء كون البيئة التي كان يعيشها متنوعة فشمال بلاد الرافدين تميز ببيئة مختلفة الى حد ما عن وسطه وجنوبه، فالجبال والاوودية والانهار والغابات متواجدة في المناطق التي تتميز بالبرودة وكثرة الامطار والمياه فضلاً عن وجود الاهوار وبساتين النخيل والطيور والاسماك في الوسط والجنوب مع الاخذ بالحسبان التشابه الموجود في البيئتين ومن بين تلك النصوص التي تشير الى بيئة العراق القديم نذكر الآتي:

"في الاهوار عسى أنالاسماك أن تفرق الطيور وفي اجمة القصب عسى أن ينمو القصب القديم والقصب الجديد عالياً وغي السهل عسى أن تنمو اشجار المشحور عالياً وفي الغابات عسى ان تتكاثر الغزلان والماعز البري ،وعسى أن تنتج البساتين المستقيمة العسل والخمر وفي الحقول عسى ان ينمو الخس والرشاد عالياً وفي القصر عسى أن تكون هناك حياة طويلة والى دجلة الفرات عسى ان تأتي مياه فائضة.وعلى ضفافها عسى أن ينبت العشب عاليا وعسى أن تكتسي المروج(الخضرة)" (33)

يصف الكاتب بيئته التي كان يراها وكيف ان الأسماك التي كانت تسبح في مياه جنوب الرافدين والمتمثلة بمياه الأهوار المالحة والتي تضيف الى خيال القارئ صورة واضحة مع تواجد البردي والقصب وهي من سمات الجمال في مدن الجنوب فضلاً عن دوره الإيجابي البارز في إثارة احساس الانسان قديماً وحديثاً وهو يعيش وسط الطبيعة الجميلة، أما الاسماك فكانت مصدره الغذائي الاول الذي طالما عاش عليه ذلك الفرد وسد جوعه والى جانب ذلك كانت الطيور تشارك الأسماك بذلك الدور فضلاً عن الجمالية التي تتمتع بها فهي تذكره بالأوطان من خلال تحليقها فوق الديار وامتلاكها الاجنحة المحلقة التي تعيقها اسوار او حواجز فكلما مرت من امام الناظر تذكر الغرباء بمواطنهم وقد جاءتفي ملحمة جلجامش اشارات عديدة توصف منها أحوال مدن جنوب العراق إذ يذكر في اللوح الاول:



"ببست الأشجار، أجمات القصب، الأهوار، ورد النهر، فانخفض مستوى النهر سبعة أذرع" (34)

نجد هنا وصفاً لمشهد من مشاهد تعبيرات البيئة التي طرأت على المنطقة بعد انحسار مياه الأنهر، أما بسائتين الفواكه فكانت حاضرة في وصف ذلك الشاعر فضلاً عن وجود نهري دجلة والفرات الممتدين من الشمال نحو الجنوب وهما مصدر الحياة والنقاء والطهارة اذ جاء في اللوح السادس الآتي:

"في نهر الفرات غسلأ أيديهما" (35)

يتمتع نهر الفرات بسمعة بالغة الأهمية كونه مصدر عيش وإرواء لجميع المدن والممالك التي كانت ولا زالت حاضرة حتى الآن وهذا ما نقرأه في اللوح الثامن من الملحمة نفسها اذ جاء :

"ليندبك نهر الفرات الطاهر" (36)

ربما يريد الكاتب أن يؤكد عمق العلاقة بين الفرد ونهر الفرات كونه قريباً منه ووسيلة تطهير من خلال الاغتسال به، ولم يكتف الكاتب بذلك بل جعله بأوصاف إنسان قريب ينعى ويتأثر لفراق قريب له مما يوصف بأنه يندبه عند فراقه ثم راح يتعنى به ووصفه بأجمل الأوصاف اذ جاء في اللوح الثامن من الملحمة:

"مزينا برسم نهر الفرات الطاهر ... " (37)

أما نهر دجلة فشارك أخاه الفرات بالدور البالغ من خلال التشبيهات التي عبر عنها الادباء واصفين الآتي:

"فتح من عينيها الفرات و دجلة" (38)

ربما كان الاعتقاد السائد آنذاك أن كلا النهرين قد جريا من عيون تيامة آلهة المياه المالحة بعد ان قضى عليها من الاله مردوك في قصة الخليفة البابلية هذا من جهة وربما اشارة الى قدم هذين النهرين من جهة اخرى، أو ربما في ذلك وصف للبعد المقدس عند هذين النهرين فالعين مصدر الرؤية والاستبصار.



- وصفالمعارك الحرففة

تمفر الأءب البابلف بءكره للمعارك الحرففة الءف ءاضءها ءفوش البابلفن مع ذكر بسفط للءفاصفل الءف ءرف فف ءلك المعارك،لءا ففء وصلنا من البابلفن المفرء الاءبف الوفر الءف ففم عن ءبرءهم فف ءال الحروب وما أعطء لهم من ءءارب إء نقرأ قولاً ففه الكءفر من الءكمة وءهءه الألهة ننسوناى كلكامش قائله له:

"لءكن عفنك ءابءءان، اءكل على ءربءك ، إن من فسفر فف المقءمة ففء الرففق ، ومن فعرف الءرب ففصر صءفقه" (39)

ففهم ان ءءربة الءف وءهء الى كلكامشمن الألهة لم ءأى إى من بعء ءكمة وءب على كلكامش أن فضعها نصب عفنفه ، اءما اءءم النزال فءوءب علىه وعلى كل القاءء أن فكون منءبهاً ناصبه عفونه وءابءة نحو الامام وءكون ءرباءه سءفءة ءءاه عءوه فضلاً عن كونه فف المقءمة كى ءشءء المهم وءزءاء العزائم لءى الءنء مع الشءور بالإفءار على النفس امام الاءوة والاصءقاء وءصوصاً اء كان الشءص سفءوض معركة ربما فموء ففها أوففا لءا فكان الوصف ففءرب من النصفءة و الإرشاء لمواصفات القاءء الشءاع وءءء ذلك ءلففا فف الأسءر الآءفة:

"هو المءفوق على الملوك، المعظم، المهفب. ، البطل، سلفل أوروك، ءور الناطء ، انه فسفر فف الطلفعة مقءاماً،(وءفن) فسفر فف المؤءرة فكون عوناً لإءوانه" (40)

إن الصفاء الءف ذكراء أنفاً ءعكس شءصففة القاءء الءف فءب أن فءلى بءصال أهمها القوة والءرأة والمعرفة والاقءام أمام الءنء لفشء من همم ءنءه و لءكون أوامره ءاء نءاءء اءءابفة ءءرز النصر له ولءفشه مع ءقفم العون لمن كان فف المؤءرة اء ءاء فف نص ففءضمن المضمون نفسه والءف فءرء مواصفات القاءء قائلأ الآءف:

"هو راعفهم وءامفهم ،الءرفء، المءءوفف، العارف القوف" (41)

مع الاعءماء على القاءة والاصءقاء الءفن لءفهم الءبرة فف معرفة ءطء الحرب ومسالء الطرقات فضلاً عن كونهم ءفة ولءفهم الآراء السءفءة الءف من شأنها أن ءءقق الانءصارات المءءالففة وءءا ما نقرئه فف الآءف:



"ليسر أنكيو أمامك ، فهو يعرف طريق غابة الأرز ، إنه واع بالنزال وملمّ بالقتال ، إن أنكيو ينصر الصديق، ويحفظ الرفيق" (42)

ولا يخفى القارئ ان الوازع الديني الاعلامي الذي اعتمده البابليون كان عاملاً مهماً في شد الهمم واقناع الافراد على خوض معارك دامية اذ يشير الى ذلك احد النصوص العائدة للملك يخدون-ليم بن يكدن-ليم ملك ماري قائلاً فيه الآتي:

"ياخدون-ليم ابن يكدن-ليم ملك ماري وتوتول وبلاد خاتنه الملك العظيم الذي يسيطر على ضفاف الفرات ، اعلن الاله دكان ملكيتي واعطاني سلاحاً فتاكاً للقضاء على اعداء مملكتي، انا الذي هزمت سبعة ملوك وقادة خاتنه الذين قاتلوا ضدي وضممت بلادهم الى مملكتي" (43)

يظهر النص أهمية المذكرات الملكية وكيفية وصفها لملوك العصر البابلي القديم وما يتمتعون به من قوة واسلحة فتاكة جعلتهم يسيطرون على مناطق واسعة وبلاد كانت تخضع لإعدائهم مع الاخذ بالحسبان أن الاسلحة التي كانت تستخدم في المعارك لم يُشر اليها صراحة لكن يمكننا ان نجد ذلك في نصوص أدبية اخرى إذ يشير نص حينما في العلى إلى ذلك :

"رفعت كنجو، جعلته كبيراً في وسطهم، متقدماً في طليعة الجيش، لقيادة الحشد، كان حاملو السلاح متراصين، زاحفين للمعركة" (44)

يظهر النص ان خيال الكاتب كان حاضراً فقد صور الحدث وكأن الآلهة كالبشر تتصارع وتتقاتل فيما بينها ، فالقائد كنجو هو المختار من الآلهة تيامة حشدته وانتخبته لقتال الاله مردوك في القصة لذا نجد أن الأسلحة الفتاكة التي جهز بها مردوكلتلك المعركة:

"صنع قوساً(و) خصص سلاحاً له، ركب سهماً وثبت وتره ،حمل السلاح الآلهي أخذه بيميناه ،علق القوس والجعبة على جانبه ،وضع البرق أمامه، ملأ جسده لهباً حارقاً ،عمل شبكة ليحصر تيامة بداخلها" (45)

تكمن أهمية النصين أنفأ في إعطاء صورة واضحة عن الاسلحة التي كانت تستخدم في المعارك الحقيقة التي خاضها البابليون من خلال نصوص خصصت لآلهة عبدت في بلاد الرافدين، لذا فمن



الطبيعي ان يحرز القادة انتصارات متتالية من خلال توفير العدة والعدد وليجعلوا جيوشهم مجهزة لأكثر من عدو إذ تشير إحدى الصيغ التاريخية العائدة لحمورابي ملك بابل إلى الآتي:

"السنة ، حمورابي الملك البطل الذي احرز نصر الاله مردوك وهزم في المعركة جيش اشنونا وسوبارتو والكوتيون بسلاحه القوي وسيطر على (بلاد) مانكيسوم والاراضي (البلاد) التي على ضفاف دجلة حتى حدود بلاد سوبارتو" (46)

ان الالقاب التي كان يوصف بها أولئك الملوك تعكس الثقة العالية والقوة التي تمتعوا بها مؤكدة الانجازات التي حققوها ضد جيوش الممالك المجاورة والبعيدة وكما بينها لنا حمورابي بابل أنفأ فضلاً عن الوصفالتاريخي لمنجزات حمورابي وقدرات جيوشه العسكرية ، أما زمري-ليم ملك ماري فيشير الى التالي:

"زمري-ليم هزم اشمي -داكان ملك ايكلام في مدينة كوردا في ممرات جبل ساكار وقوة من جيشه و... مانه من الخانيين فسار اليهم زمري-ليم وهزمهم" (47)

يؤكد الملك عن معركة دار قرب جبل ساكار وقد هزم اشمي-دكان ملك ايكلامبن الملك شمش-ادد فضلاً عن هزيمة حلفائه من الخانيين وهنا يجب أن نشير الى السياسات المتوقعة التي قد تحصل في المعارك من مبادرة للهجوم وغيرها كما جاء في رسالة وجهها أبل-ايليشو الى توتوب-ماجر نصها الآتي:

"احسم المسألة استناداً لأمر الملك ، الرجال (حاصروا) كالطوق الاعداء (الذين) يسكنون القرية (في) خندق واحد في يموت ياموت-بعل... (48)"

وفي رسالة مشابهة موجهة من شخص يدعى سين-بيل-تالي الى سين-اشمي-اني تضمنت وصفاً سردياً لخروج الجيش وفعالياته ضد الاعداء قائلاً:

"منذ اليوم اذى خرجت(فيه) من مدينة ميتوران مع الجنود،ماكور-ننا بعد ان اسر((أخذ))أرامي
وضع—(هـ) في القيد، غزوت الحصن المنيع العائد لمدينة كارم ذات الخندق القوي، واستولينا
على الخندق الوحيد و(اسرنا) عشرة جنود...." (49)

تقدم كلا الرسالتين اشارات مهمة الى أن الحصار من السياسات المهمة للقوات الغازية الهدف منها
قطع الامدادات العسكرية والغذائية ليس للقوات المدافعة فحسب بل لجميع من يسكن في تلك المدن
، فمن المؤكد أن الافراد الذين لا يستطيعون القتال او الذين سقطوا في الأسر سوف يؤخذون
كأسرى وكما مبين سابقاً ولم يقتصر الامر على الجند والافراد فحسب بل نجد ان كثيراً من الملوك
قد سقطوا في الاسر وكما يشير الى ذلك النص الآتي:

"نصف سنة لم تمض ، ريم-سين الثاني أقتل ، بلاد يموت-بعل التي الى ملوكية مدينة لارسا
ثارت ، ارض مدينة كيش (جعلتها) اكداس دمار عالية ، قتلت ستة وعشرون ملك ثائر متمرد،
دمرت قوتهم ، ايلوني ملك اشنونا أسر(لانه) لم يسمع كلامه،بجذع النخل تعلق،وعنقه قطع،
مجموع بلاد سومر واكد ستسمع ،الجهات الاربعة الى قوله ستثبت" (50)

اخبرتنا المذكرات الملكية الخاصة بالملك سمسو-ايلونا ان ملكلارساواشنونا قد تعرضوا الى الأسر
والقتل فضلاً عن تدمير مدنهم وأراض اخرى لم تطع كلام ملك بابل على حد قوله ويبدو أن أولئك
الملوك قد تفاخروا بهذه الانجازات العنيفة دلالة على قوة جيوشهم وسلطانهم فضلاً عن كونها
ناحية اعلامية الهدف منها نفسي يحقق اخافة الممالك التي تنوي التمرد او عدم اطاعة الاوامر او
التي تنوي شن هجمات مضادة على قواتهم لذا نجد ان أشمي - دكان يكتب الى أخيه يسمخ - أدد
عن ذلك قائلاً:

"جنود ويلانم كلهم تحشدوا سوية مع بني - أدد لشن معركة ... قتلت قائد بني أدد وقتلت
بني (أولاد) ويلانم كلهم وقتل عبيده كلهم وجنده ولا يوجد (رجال) الاعداء الذين قد خرجوا
عسى تفرح" (51)

لفس من المسابعد أن فقتل الاطفال والشفوخ والنساء كنبفة ءنمفة لئلك الءروب لءا فمن الطففبف للشاءر العراقف القفم والمعاصر أن تظهر فف مفراءة الشهرفة صبغة الءزن لما تعرض له من وفلات وءروب.

- وصفالرفاء

امراز شعراء العراق القفم بائقائف لونا من الوان الشعر وهو الرفاء؁ اء كان فصف فف ابفائه الشعرفة كل معاناة ءاته وفنفس عن لواءها وانفعالاتها فف موقف معفن قء ءصل معه او مع قرفب منه؁ لءا كان الوصف وءصوصاً فف باب الرفاء وسفلة لءكرفم الشءص المرثف واستءضار المآثره واستءكار البطولاته او لوءة فمئل بها ءنفته الى مرابع الوطن والأهل والأءبة فضلاً عن اشفاء أخرى قء تراود الشاءر ففءكرها بغبة اعلافه عن ءنفته الفها.

إن الوصف فف الرفاء ءاء من ءراحاء القلوب أو بكاء الأءبة وفقدان الأوطن؁ فهو من أصدق العواطف الإنسانية وأءلءها على مر الأزمان ولء وققنا الءاضر؁ ولعل السبب فعود الى كون الرفاء فندرء ضمن انواع الوصف الوءءاني الءف مئله اهل الأءب الءءفء بانه افضل انواع الوصف؁ كونه فءاطب عزفراً فارق الءفاة أو ملكاً اقئفء أسفراً الى بلاد الأءءاء أو أوطاناً ءارت علفها عواءف الزمن.

ولابء من الاشارة الى أن البلاغة لءى شعراء بلاد الرافءفن قء وفرت لنا الكئفر من النصوص الأءبفة الءف ءءكف واقع الءزن وطبعه الءف اسئقر وعشعش فف نفسفة الأنسان العراقف قءفماً وءءفئاً فعود ءلك لأسباب عءفءة منها؁ اءتماعفة كفراق الءبة والاهل فضلاً عن نواءف سفاسفة ناءمة عن العزو والءروب والاءتلاال والمطامع المئءالفة على ءفراء هءا البلاء؁ كما كانت النواءف الاقئصاءفة الناءمة عاملاً مؤثراً فف نفسفة الانسان آنءاك كقلة الأمطار او الففضاناء الطارئة على البلاء والمؤءفة الى الءوع والهلاء ءافعاً فءعوه الى الانئقال والاعئراب من موطنه الى اماكن اخرى بءئاً عن الكلاء والمرعى سواء له أو لماشفئه وما فئبعه من ءنفن وشوق الى الءفار الءف كان فققن وفئب بها.

فف ففن كانت البفة القاسفة الفف انعكست بصورة مباسرة على نفسفة الانسان فالحرارة الشففة صففاً والبرووة القارصة شفاءاً فضلاً عن تقلبات وففضانات نهرفف ءةة والفرفف وءم اسنقرفارهما وما آت الفه فك الظروف من خوف وقلق مزمن فعنرفه كلما امطرت ءنفا وربما ان هناك اسباباً قء منحت ءلك الشاعر لفصف حزناً اعنراه لسبب من فرر الاسباب المذكورة أنفاً. وبهذا سنقوم بأءراج الوصف حسب الآف:

1- رثاء الانسان:

فؤء موء الملك والاب والابن والام والاف وفرهم من الاهل والاحبة والاصءقاء حزناً عمفقا لا فمكن ان ففخفله الا ءف قء فارق اءهم، مما فءعو ءلك الانسان أن ففأمف وففر فف ءقفة الموت، فالأب هو صاحب القلب الكفر الفف فحنو الفه الابن، اما الام فهف الموطن الفف فحن وفلم الشمل اما الاولاء فهف فلءاء الاكباء وقرة العفون، اما الاصءقاء فهف العملة الناءرة فف كل زمان ومكان وكم من صءفق فءوففك وئرءعش روءك كلما ءكرته، لءا فسناول ان نءكر قسماً من فك النصوص الفف ءبفن اهمفة ءلك الانسان الفقفء وما ءعا الشاعر الف رثاءه ان ءاء فف نص رثاء سومر واكء الآف:

"لم فءء الناس فسكنوا فف ءفارهم، وانهم اسلموا للسكن فف بلاد الاءاء وأءء ابف-سفن مكبلاً الف عفلام، كالطائر هءر عشه، ولم فءء الف مءفنفه ، ءحولء المءففة الف ءراب ، وءءع العءفء من ءوف الرؤوس السود" (52)

ءشفر الاسطر الف ءعرض بلاد الرافءفن لهءوم معاء من بلاد عفلام مما ءعل البلاد ان ءءول الف ءراب واقتفاء اهلهام وملكها الف بلاد الاءاء فضلاً عن المءابء الفف ءعرض لها السومرفون آنءاك ان ءءم الكارءة الفف مر بها الوطن ءعلء الشاعر فعطف لنا صورة واقعة ءخفلفة فضلاً عن اسءاعة الكاءب بءشفبه الملك بطائر قء هءر عشه مع الأء بالءسبان ءفن الطفور الف اماكنها

علماً انها تهاجر لمسافات بعيدة وتعود الى اعشاشها لكن الملك لن يعود ثانية الى وطنه حسب قول الشاعر الذي قرب بهذا الوصف مدى إحساسه بفقدان المرثي الحزين ثم يكمل في حديثه قائلاً:

"انه ليوم اسود ، في ذلك اليوم سحقت افواه، وهشمت رؤوس" (53)

اتبع الشاعر الوصف اللوني لذلك اليوم إذ وصف فيه الكاتب دلالة اللون الاسود المرتبط عادةً بالحزن والموت ليبرعن طبيعة ذلك اليوم الحزين ، كما نفهم من هذا أن كل الذين قارعوا المحتل وعارضوه اصبحوا تحت مطرقة الاعادي لذا فكان واجباً أن يتعرض الملك والبلاد والأهالي لمثل هذا المصير من لدن الاعداء إن حجم المرارة التي تعرضت لها العوائل واضحة في ابیات اخرى اشار اليها الكاتب اذ يقول:

"الزوج هجر زوجه ولم يعد يقول آه يازوجتي، الأم هجرت ولدها ولم تعد تقول له آه ياولدي" (54)

أستطاع الشاعر أن يوظف العبارات التي تصف حالة التفكك الاجتماعي بين افراد العائلة نتيجة الخراب الذي حل بالوطن من خلال إعطاء صورة تذكرنا بيوم القيامة والذي طالما قرأنا وسمعنا عنه في القرآن الكريم والذي يشير الى الشدة التي يمر بها الانسان بدليلذكره لتخلي الرجل عن زوجه وبالعكس والحال نفسه بالنسبة للأم التي لديها طفل مما يدعوننا إلى القول بمعرفة العراقيين المسبقة عن احوال يوم القيامة والتي ربما جاءت من دعوات دينية قد مرت بها البلاد بدليل الصورة الخيالية الحقيقة التي نقلها لنا هذا الكاتب ، في حين جاء بأسطر اخرى عن مضمون مشابه اذ يقول:

"بسبب ان الاعداء الذين لا يعرفون الخير والنشر قطعوا كل الاشياء، نغني لحناً حزيناً، بسبب انهم انهوا الناس كالحیوانات وتصرخ(آه يأرضي) بسبب انهم كدسوا المرأة الشابة، والرجال،والاطفال الصغار و جموعهم على شكل اكدااس الحبوب ،تصرخ وأسفاه عليهم" (55)

ركّزَ الشاعر على الوصف البصري والسمعي للمشهد المؤلم الذي يبين مدى قساوة العدو وعدم انسانيته في التعامل مع الضحايا لذا فقد انهى اعداء بلاد الرافدين كل شيء يشير الى الحياة إذ

قتلوا المرأة والرجل والطفل وجموعهم هذا ما اكده شاعرنا مستعيناً بعبارات التشبيه والاستعارة اذ يشبه الاهالي بالحيوانات تارة والحبوب تارة اخرى قاصداً من هذا الوصف انهم كالحيوانات التي تلوذ من الخوف فتتجمع حول بعضها محاولة حماية نفسها لكن الشاعر عاد ليؤكد الموت الجماعي عن طريق تكديسهم كالحبوب مما يشير الى تكدر الجثث ويعلل الكاتب ان الالمان الحزينة التي يغنونها هي دليل على ذلك الحزن العميق لما جرى في البلاد.

أما رثاء الاصدقاء والاخوة فكان جلياً وواضحاً في نص جلجامش وصديقه أنكيكو اذ يقول:

"وفي هذا اليوم سأندبك أنا، اسمعوني ايها الفتية، اسمعوني، اسمعوني يا شيبية أورو، اسمعوني ، سأبكي على أنكيكو، صاحبي، مثل نذابة سأنحب بحرقة ، يا بلطة على جنبي، يا قوساً بيدي ، يا سيفاً بحزامي، يا درعاً أمامي ، يا كسوة عيدي وبهجتي ، لقد هب شرٌ وسلبني ، آه يا صديقي، حمار الوحش الجامح، حمار الجبل الوحشي، نمر البراري ، صديقي أنكيكو، حمار الوحش الجامح، حمار الجبل الوحشي، نمر البراري ، بتأزرنا ارتقينا الجبال"(56)

يوضح الكاتب قدرته على وصف حالة الفراق التي مر بها جلجامش من خلال استخدام الوصف الخيالي المعتمد على التشبيه فقد قام جلجامش بإعلان حالة الحزن لأهله في مدينة اوروك من خلال رثاء اخيه وصديقه وبكائه علناً وندبه بحرقة ثم يعود ويستذكر ويوصف ويشبه ذلك الصديق بالسند القوي والعضد الذي طالما ساعده من خلال تشبيهه بالبلطة و القوس و السيف و الدرع والتي كان لها دور في بطولات جلجامش على مر الازمان فضلاً عن قوتها في مساعدة الفارس للقضاء على اعدائه ثم يذكر أن بحبوحة الفرح التي كان يتمتع بها هي بوجود ذلك الرجل وليصفه بالكسوة او الملابس التي يرتديها الرجال التي من شأنها ان تظهرهم بالمظهر اللائق المهيب، ويتبع وصفه بالآهات على انكيكو ثم يعود ليصف صديقه مستعيناً بالتشبيهات العديدة المشيرة الى قوته وبسالته في ساحات النزال اذ وصفه برموز الطبيعة الحية عبر شراسة الحمار الوحشي ونمر البراري وكيف بوجوده قد منح القوة للارتقاء الجبال ، ولم تنقطع تشبيهات الكاتب الخيالية التي من شأنها تقريب الصورة الى المتلقي والسامع ليتصور حالة القائل اذ يشير في اسطر أخرى إلى أن جلجامش يصيح كنسر او كلبوة ابتعد اشبالها عنها اذ جاء في النص الآتي:

"وصاح كانسر ، ومثل لبوة مبتعدة عن أشبالها ، أخذ ينتقل متلهفاً إلى الأمام وإلى الوراء ،
ينتف وينثر شعره الأجدد، يخلع ويرمي الحلي التي (تزين) جسمه" (57)

مما يجعلنا ان نستشف ان الشاعر يريد ان يبين صورة وصفية حركية ، نشعر معها بحركة الشخصية التي تعاني نفسياً من الحزن ، وخصوصاً إذ كان الحزن للرجال وما له من خصوصية في مجتمعاتنا الشرقية هو الحال نفسه اذا ما رأينا نسرأ ينوح ويدوج البراري بحثاً عن فراخه او لبوة فقدت اطفالها وهي هائمة تبحث عنهم وكيفية شعورها بالانكسار هذا الموقف الجلل لذا فقد ايقن جلجامش بعد غياب انكيديو عن الوعي وعدم سماعه لندائه هذه النتيجة الحتمة لذا بدأ متلهفاً متوحشاً نائراً ضد القدر فيذهب الى الأمام والوراء ، نائراً شعره وناقلاًه وخالعاً عليه وهي من شارات الحزن الذي تظهر حالة الحداد وشدة الصدمة التي تلقاها اذ بدأت النوايا عن ترك ملذات الحياة بخلعه للحلي والمجوهرات بعد فقدان حبيبه واخيه انكيديو ويؤكد ذلك في أسطر أخر اذ يقول:

"جلجامش، على أنكيديو، صديقه ، يبكي بحرقة، ويجوب البرية (وهو يردد): أنا ساموت
أولاً، أكون مثل أنكيديو؟ ، لقد دخل الأسي إلى أحشائي" (58)

ان الحقيقة التي اراد ان يوصلها الينا الشاعر هي صورة وصفية تمثل نوعاً من الحوار الداخلي بين كلكامش وذاته المنكسرة بعد شعوره بنهاية الانسان حتى ولو كان بقوة أنكيديو لذا فقد ادرك أن مصيره كمصير انكيديو وبهذا فقد دخل الحزن والاسى الى احشائه ثم يستمر جلجامش في قوله بأنه سوف يجعل اهل ادورك يحيون ذكرى موت انكيديو:

"الآن جلجامش، صديقك وأخوك المفضل ، سيجعلك تنام في سرير عظيم ، سيجعلك تنام في فراش وثير ، ويضعك (في) موضع راحة إلى الشمال (منه) ، فيقبل (أمراء) الأرض بقدميك ، سيجعل اهل أوروك يبكونك ويرثونك" (59)

مما يدعونا الى القول انه اراد أن يعظم ذلك الصديق من خلال احياء ذكرى وفاته بوصف لطقوس الاحتفاء به تمجيداً لبطولاته فضلاً عن جعله في مثواه الاخير وهي في حالة من الراحة مع جعل ذلك المرقد مكاناً يأتي اليه الامراء والحكام ليقبلوا قدميه احتراماً له ولأعماله الخالدة.

2-رثاء الأوطنان:

أصبح رثاء الوطن من الميزات الواضحة في أشعار العراقيين القدماء سواء كانوا سومريين أم بابليين على حد سواء، لكثرة ما تعرضت له تلك الممالك من مصائب ومحن، وقد اوردنا أنفاً الكثير من النصوص التي اعطتنا الغرض نفسه لكننا سنقتبس من بين العديد من تلك النصوص الآتي:

"بسبب أن الاعداء الذين لا يعرفون الخير والشر قطعوا كل الاشياء، نغني لحناً حزين" (60)

يريد الكاتب أن يوضح مدى انعكاس الولايات التي عانى منها وطنه على نفسيته ومدى تأثيرها على الألحان والأغاني التي تغنى في المناسبات الدينية والاجتماعية سواء في الافراح والاحزان وهذا ما نلتمسه لحد وقتنا الحاضر الى جانب الأشعار التي كانت بمثابة قصائد ربما غنى الكثير منها أو ردد آنذاك وهذا ما نلتمسه في الأبيات الآتية:

"اسودت السماء بظلمة حالكة وأصدت الجبال، واختفى القمر وسط السماء وعاش الناس في رعب، الغرباء في المدينة يتصدون الموت، قطفت الاشجار الكبيرة ودمرت الغابات، جثث القتلى تطفو على نهر الفرات، واللصوص يجوبون الطرقات" (61)

الوصف هنا أشبه بمشهد سينمائي تنتقل فيه الكاميرا من تصوير السماء السوداء والجبال إلى اختفاء القمر ثم تنزل الى الطرقات لتصور الغرباء والاشجار المقطوعة والجثث مما عكس الشاعر الصورة السوداوية المظلمة التي كان يراها وكيفية شعوره وكأن الجبال اطبقت عليه أو أغلقت كل طرقاتها بوجهه وذهب القمر بلا عودة في السماء وكأنها اشارات رعب تنذر بقدوم الموت والاعداء ، ثم يعود ذاكراً الطرقات التي كان يجوبها اولئك القتلة واللصوص الذين لم يبقوا شيئاً إلا وانهوه من بشر و ممتلكات واشجار، وكأننا نستذكر من ذلك ما فعل هولاء المغولي بعاصمة الرشيد بغداد عند غزوه لها وتحديداً عند طوفان جثث البشر على نهر الفرات ،وقد جاءت اوصاف مختلفة لشعرائنا تحاكي حال المدنواسوارها واماكنها المقدسة فضلاً عن ازقتها فنجد من بين تلك النصوص احد الشعراء يرثى حال مدينة اور وأهلها التي تعرضت الى دمار من بلاد عيلام مشبهاً ذلك الحدث بالمذبحة قائلاً:



"مدينة اور التي كانت واثقة بقوتها، وقعت في مذبحة، فمن لم يمت منهم بفعل السلاح، مات بفعل الجوع، أور في دخلها موت، في خارجها موت، وفي خارجها نقتل بأسلحة العيلاميين" (62)

يصف الكاتب المدينة التي قد تعرضت الى حصار طال الاهالي فضلاً عن القتل بسلاح الاعداء لذا فأصبح الموت في داخل المدينة وخارجها، فلم يعد الذي بقي في الداخل آمناً على حياته ولا هو في الخارج يستطيع أن ينفذ بروحه من سطوة العيلاميين، فكان لأدباء العراق القديم دور بارز في إظهار حجم الألم من خلال رثاء مواطنهم إذ جاء عن رثاء أور الآتي:

"رثاؤك مر اليم ايتها المدينة ، مدينة أور التي دمرت،رثاؤها مر، آه يا أور المشيدة بالآجر،رثاؤك اليم،الحنن حل فيها، آه يامدينة الأسوار العالية،لقد هلكت ارضك ، سوية مع الاله الذي هوجم بيته،مدينتي اسلمت للدموع ، في الليل مرثية مرة تولدت في داخلي" (63)

لا يكتفي الاديب بوصف حال المدينة المنكوبة ، بل يصف احساسه بها والذي تحول الى مرارة يستشعرها في رثائه الذي يجري في فمه ، والذي ترك في صدره آهات وحسرات فنجده يكرر(آه) في النص أكثر من مرة ، وكأنه يريد أن يسمعنا مدى حزنه و ألمه فضلاً عن ذلك فقد مزج الشاعر بين الوصف الخيالي المعتمد على التشبيهات اذ يذكر مرارة رثاء مدينة اور كماء البحر المالح بعد أن كان عذباً فراتاً قبل الغزو ،ثم يشير الى مزاياها ويعرج الى جمالها وكيف سلب ذلك الجمال والهيبة ثم يقوم ليوضح لنا كيف جاءت الاسطر والاشعار تتراقص في ذهنه ليذوقها ويبينها لنا عبر اسطر مسمارية توضح عظم ذلك الحدث ثم يستمر ذلك الاديب ليصل الى الوصف الحسي المتمثل بنقل الصورة الدقيقة القريبة جداً من الحقيقة والمتمثلة بالمدينة المقدسة لدى السومريين وماذا حل بشعبها وابنيها وعمائرها مع وصف الكاتب لمدينة اور مستعيناً بالوصف الخيالي بعد أن ضمن ابياتاً جعل من المدينة وكأن لها احساساً تشعر بها بعد ان كتب على اهلها الموت وكتب عليها الدمار ليبنى بدلها مدينة اخرى مما جعل تلك المدينة ترثي حالها وتذرف الدموع بمرارة وتتحسر ثم يعزز كلامه بتشبيهه ضمنه في وصف لحال المدينة قائلاً:

"مدينة اور كطفل زقاق مدمر يبحث عن مكان امامك ، آجر البيت الصالح يبكي كمخلوق آدمي" (64)

ان التشبفه الرائع الذي ادخله الكاتب لفسور لنا كفففة هروب المففنة من الاعاء كالطفل الذي فففش فف الزقاق بعء أن مات أهله أو مات اءء والففه ولم فلفزمه أءء ما مما ففعله هارباً من الآفرن لفشوره بالخوف فضلاً عن إعطاء صورة وصففة تشففصففة شبهت الأءر بحال انسان له عفوناً فبكي عنء تعرضه للظلم والقهر أو لمثل ما حلبمففنة أور، وبهءا فقء وصل الكفبة السومرفون والاكففون الى مرءلة مفقءمة من الوصف الحزفن لأي موقف قء حصل او سمع به وضمنوا له العبارات والحكم والامثال وفر ذلك فنءء فف نص مرئفة مففنة ارفو الأمر مشابهاً اء فقول الكاتب:

"ارفو العائمة على مفاه عظفمة، حرمت من مفاه الشرب ، ابكي مففنك لعنت، اعطفت الى ارض العءو ، اصبح شعبها مثل سمكة محءوزة (فف بركة) فبءء عن ملءاً ، مففنة اور اضءت تلالاً ءربة كأنها قلبت بمعزفة ، منذ القدم، منذ أن ارسفت البلاد الى فومها هءا ، من رأى منكم ملكاً باقياً" (65)

نلاحظ ان البكاء والنحب هو المفففس الوءفء للإنسان العراقي القءفم فف معظم ما ءاءنا من نصوص اءبفة فءففءاً عنءما نءءه قء فقء وطئه أو اءرب عنه ، وهءا ما ءاء به عن حال مففنة ارفو الفف كانت ترسو على المفاه وباءت عطشى بعء ءءول المءئل لءا كان من البففهف أن فصبء حق ملكفئها ببء العءو الذي انهكها ، ثم فقوم الكاتب بالاستعارة تارة والتشبفه تارة أخرى بالسمة الفف تلوء ءائفة فبءء عن مأوى فلءاً فله ءااء بركة صءفرة ففستمر الكاتب بوصف مءن أخرى كمففنة اور المققسة والفف قلبت رأساً على عقب ففءة الفوضى الفف فلت بها فضلاً عن فأكفءه عءم بقاء هءا البلد فف هءوء تام كون الففا بأناسها معرضفن للفناء فففهم من هءا القول أن البشر هو الأهم فف هءه الففا ومصفره الفناء فما بالك بفلك المءن الفف من البففهف أن فصبء ءربة بءونه، مع الأخء بالحسبان أن ذلك الءمار سفطول الاماكن والمساكن وءور العباءة وكما مففن فف الآف:

"فصارت المرأة فبكي على بفئها المهمء، والسفءة ففعى بمرارة معبءها المهمء" (66)

أكد الكاتب أن من أهم نتائج الاحتلال هو انهاء مواطن ارتباط الانسان سواء كان بمكان سكنه أو حتى بمشاعره تدريجياً اذ نجد أن الاسطر التالية تؤكد ترحيل الشعب وتشريد نسيجه الاجتماعي بعد أن دمرت ونهبت كل املاكه فنقرأ في التالي:

"بناتي وابنائي حقاً... حملوا بعيداً، يا حسرتاه على اهلي ، سأقول، يا حسرتي بناتي في مدينة غريبة، يحملن رايات غريبة، آه ياننا، مدينة اور المقدسة دمرت، شعبها ميت، يا لحزني اين ، سأجلس، اين سأقف ، يا لحزني، في مكان مدينتي تبني مدينة غريبة" (67)

أكد الأديب أن الحسرات تتالت بعد تدمير مدينة أور ونقل نساها الى مواطن الاعداء بعد أن أخذن سباياً فضلاً عن إرغامهن على حمل رايات غريبة والتي لا تمت بصلة لمدينة أور واهلها، ثم يعود الكاتب ليؤكد مشبها حال الاهالي بالموتى ، مستذكراً الاطلاع والأماكن التي كان يجلس ويقف بها متسامراً الحديث مع الاخوة والاصدقاء ومتسائلاً ماذا ابقى له الاعداء؟ ومناجياً ذاته المتألمة وكيف أن مدينته قد حلت محلها مدينة غير مدينته لهذا يقوم الكاتب في اكثر من مشهد متمنياً وراجياً ان الايام الخوالي تعود كما كانت لان الماضي لا يبقى منه سوى الذكريات الجميلة اذ جاء في أحد النصوص الآتي:

"ارضي لم تحرر من الخوف، لأنه في مدينتي كانت مصيبة مريرة، انا كطير السماء اضرب جنحي الى مدينتي، مدينتي على اسسها دمرت ستفنى اور في مكانها" (68)

أفصح الشاعر عن حالة الخوف التي تنتابه من مصائب الاحتلال وتبعاته لذا جاء ليتمنى حاله كحال الطير الحر الطليق الذي اذا حن الى عشه او وطنه عاد اليه من دون خوف أو ريب، مع اشارة لما ستصل اليه بعد تلك المصيبة من فناء ودمار الى حد الاسس.

ومما تقدم فجميع ما أشرنا إليه من نصوص أدبية تظهر لنا خلاصة مفادها أن الوصف عند العراقيين القدماء وتحديدأ لدى البابليين كان يرقى لمصاف الوصف في الادب العالمي اذ يرد وصفاً خيالياً مستعيناً بالتشبيه والاستعارة مع عدم خلوه من المبالغة حيناً ، ووصفاً حقيقياً يوصل الصورة الى الآخر سمعاً وبصراً وفؤاداً حيناً آخر ، مع الأخذ بالحسبان القدرة العالية التي تمتع

بها الأءفب البابلف من غزارة المفردات المعبرة عن الءزن وانتقائه لها والتي ولدت من الظروف القاسفة والمصائب والوفلات والمءن التي مرء علىه وعلى بلاءه أو ربما جاءت من الطفبفة والطفئة القاسفة التي عكست طابع الءزن من أن فعشش فف نفسه ففظل قلقلًا غير متفائل مع كءرة الاءتلاالاء التي نءجت من عدم وفوء ءءوء طفبففة ءءمفه وءءمف بلاءه من الاءءاء مما ظهرت ءلك الاءزان فف شءصفئه القوفة الفءة المءاربة فف المءارك والءروب ، فضاءً عن الشءصفة الفرءة الممزوجة بطابع الشءن اءناء الاءءقلاالاء الرسمفة ورفر الرسمفة .



هوامش البحث

- 1- زكرفا، لابي الحسين أحمء بن فارس، مقابفس اللغة، الفاهرة-ءار الءفء، 2008، ص 957.
- 2- اللبءف، هبة ابراهفم منصور، الوصف فف شعر الملك الانءلسف فوسف الءالف، رسالة ماآسفر ففر منشورة، آامعة الءآاح الوطنفة، نابلس، 2012، ص 10.
- 3- اللبءف، مصدر نفسه، ص 10.
- 4- اللبءف، مصدر نفسه، ص 12.
- 5- اللبءف، مصدر نفسه، ص 14.
- 6- الأسود، آكمء بشفر، أءب الغزل ومشاهء الإءارة فف الءضارة العراففة القءفمفة، ءمشق، 2008، ص 224.
- 7- الأسود، آكمء بشفر، مصدر نفسه، ص 225.
- 8- الأسود، آكمء بشفر، مصدر نفسه، ص 130.
- 9- الأسود، آكمء بشفر، مصدر نفسه، ص 131.
- 10- الأسود، آكمء بشفر، مصدر نفسه، ص 227.
- 11- الأسود، آكمء بشفر، مصدر نفسه، ص 224.



- 12- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 114
- 13- الأسود ،حكمت بشير،، أدب الغزل...، مصدر سابق، ص. 28
- 14- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 62
- 15- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 268
- 16- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 269
- 17- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 271
- 18- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 245
- 19- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 81
- 20- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 28
- 21- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه ، ص. 28
- 22- حنون، نائل، ملحمة جلجامش ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الاكدي ، دمشق، 2006، ص 71-72.
- 23- الأسود ،حكمت بشير ، أدب الرثاء...، مصدر سابق، ص. 63
- 24- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 36
- 25- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 33
- 26- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 85
- 27- حنون، نائل، ملحمة جلجامش...، مصدر سابق، ص. 219
- 28- الأسود ،حكمت بشير، أدب الرثاء...، مصدر سابق، ص. 47
- 29- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 42
- 30- الأسود ،حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 73

- 31- حنون، نائل، ملحمة جلجامش...، مصدر سابق، ص.111
- 32- حنون، نائل، مصدر نفسه، ص.93 .
- 33- الأسود، حكمت بشير،، أدب الغزل...، مصدر السابق، ص 250.-251
- 34- حنون، نائل، ملحمة جلجامش...، مصدر سابق، ص.160
- 35- حنون، نائل، مصدر نفسه، ص.162
- 36- حنون، نائل، مصدر نفسه، ص.179
- 37- حنون، نائل،، مصدر نفسه، ص. 187.
- 38- حنون، نائل، حينما في العلى قصة الخليقة البابلية الترجمة الكاملة للنص المسماري للأسطورة، دمشق، 2006، ص.161
- 39- حنون، نائل، ملحمة جلجامش...، مصدر سابق، ص. 113.
- 40- حنون، نائل، مصدر نفسه، ص. 72.
- 41- حنون، نائل، مصدر نفسه، ص. 75.
- 42- حنون، نائل، مصدر نفسه، ص. 113.
- 43-Frayne, D, Old Babylonian period ,(2003-1595BC),RIME, 4 ,Toronto , 1990,P.602-603,No.1:1-20.
- 44- حنون، نائل، حينما في العلى...، مصدر سابق ، ص.86.
- 45- حنون، نائل، مصدر نفسه، ص. 136.
- 46- Mercer , S . A . B . , Sumero - Babylonian Year - Formulae , SBYF , Michagan , 1946 . p . 143 , No .134.
- 47-RIME,4,P.623-624,No.1:1-11.



48- محمد ، احمد كامل ، رسائل غير منشورة من العهد البابلي القديم في المتحف العراقي ، اطروحة

دكتوراه غير منشورة ، بغداد ، 1996 .ص. 63

49- محمد ، احمد كامل ، مصدر نفسه، ص. 131.

50- RIME,4,P.387,No.7:1-11.

51-Dossin , G , Correspondance de SAMSI - ADDU , ARM , IV ,
paris , 1951,P.56, No . 33 : 5 - 8 , Rev . 13 - 21 .

52- الأسود ، حكمت بشير، أدب الرثاء ...، مصدر السابق، ص. 40.

53- الأسود ، حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 40.

54- الأسود ، حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 41.

55- الأسود ، حكمت بشير، مصدر نفسه، ص. 48.

56- حنون، نائل، ملحمة جلجامش...، مصدر السابق ، ص 180.-181.

57- حنون، نائل، مصدر نفسه ، ص181.-182.

58- حنون، نائل، مصدر نفسه ، ص. 191.

59- حنون، نائل، مصدر نفسه ، ص.170.

60- الأسود ، حكمت بشير ، أدب الرثاء...، مصدر سابق ، ص. 48.

61- الأسود ، حكمت بشير، مصدر نفسه، ص40-41 .

62- الأسود ، حكمت بشير، مصدر نفسه، ص44.

